اللغة العربية بين التحدي والواقع

أ. محمد بوعلي
جامعة تلمسان

1- تمهيد: تتطور الحياة العلمية اليوم بسرعة جارفة وتتطور معها الأبحاث اللغوية مستندة إلى الثورة التقنية والحاسوبية، وصار اللحاق بركب هذا التّطور ضرورة ماسة، وليس ترفا ثقافيا، بل لا بد لكل أمة تريد لنفسها مكانا بين الأمم المتقدمة أن تواكب هذا التطور لئلا تجد نفسها في طور التخلف.

والسؤال المطروح أين هي لغتنا من هذا التقدم، أهي في مستوى هذا التطوّر؟ وكيف يمكن اللحاق بمن سبوقنا؟.

في هذه المقالة سأحاول الإجابة عن هذا التساؤل.

2- واقع اللغة العربية: مما لا شك فيه أن هناك رغبة عارمة لدى أبناء الأمة في استخدام لغتهم الخالدة، والعودة إليها في كل المجالات على الرغم من الأوضاع المتردية التي وصلت إليها في بعض مناحي الحياة، ذلك أن حال اللغة العربية في مدارسنا وجامعاتنا يندى له الجبين، وقد أصبح استخدام اللغة العربية كلغة علمية وتقنية موضع تساؤل وأخذ ورد بينما جميع الأمم الأخرى لا ترضى بغير لغاتها القومية بديلا. إن مشكلة اللغة العربية تكمن في تراجع أبنائها عنها خصوصا الذين بيدهم الحل والعقد، ولن نفيق مما نحن فيه إلا بالكفاح والجهد الممزوج بالعرق والسهر والجدية واقتحام الحصون العلمية والتقنية التي غدت منيعة على اللغة العربية.

إننا نرى بريق الأمل في الجهود التي يبذلها المخلصون من أبناء الأمة العربية فقد وقفتُ على العديد من الصيحات التي أطلقها رجال الفكر والعلم من هذه الأمة نذكر منهم الكاتب المعروف فهمي الهويدي الذي أطلق الصيف الماضي صيحة تحذيرية مدوية في العديد من مقالاته الأسبوعية، يقول الأستاذ فهمي

هويدي: «وقعت هذا الأسبوع على عدة شهادات أدركت منها أن تخلّفنا العلمي وصل إلى حدّ الفضيحة وإننا ما لم نشمر عن سواعد العزم ونتحرك بكل جدّية وإصرار فإن مستقبلنا بل وجودنا كله سوف يصبح في مهب الريح»[1].

3- ما تواجهه اللغة العربية: من المشاكل التي تواجهها اللغة العربية وتقف أمام استخدامها في الحياة العلمية نجد:

أولا: غزارة غزو المصطلح الأجنبي: الذي صار يغزو الأسواق العربية على تنوعها واكتسح الميدان التقني بسرعة مذهلة، وطرح نفسه في الاستعمال مشحوناً بثقافة بلد المنشأ ومرجعيتها الفكرية، ولم يتمكن العقل العربي من الإسراع في إيجاد البديل عن طريق الوضع والترجمة أو التعريب "مما جعل القارئ العربي يعيش متاهات تعدد المصطلحات الوافدة من جانب، وعسر استعمالها وفهمها لأنها مخالفة للذوق اللغوي الأصيل من جانب آخر وحتى في حالة تعريبه فإننا نجد تعدد التعريب وتعدد الترجمة يحدث فوضى في الاستعمال ومن هنا ينبغي أن نبحث عن طرق علمية تمكننا من التغلب على هذا المشكل، ومن أجل ذلك سأسوق بعضًا من الآراء علّها تكون أرضية قد يبنى عليها الغيورون على العربية، وبدءً أُطمئن الذين يدعوننا إلى اعتناق اللغة الأجنبية بديلا عن العربية، إن اللغة العربية في بلادنا كالماء والهواء ومن يطلب منا التّخلي عنها فهو كمن يطلب منا أن نتوقف عن التّنفس ولا أدخل في الجواب وإنما أترك الأمر للمرحوم علال الفاسي يجيب بقوله:

إلى مَتَى لُغَةُ القُرآنِ تُضطَهدُ ويُبِيحُ حَمَاهَا الأَهلُ والوَلَدُ[2]

ثانيا: أدعو القراء والباحثين إلى حمل المصطلح العربي والدفاع عنه وتكراره واستخدامه، وفي هذا الطرح أذكر ما أورده المهندس السوري فداء ياسر الجندي[3] يقول: «عندما وصل الاختراع الذي نسميه "سيارة" إلى البلاد العربية أواخر القرن قبل الماضي، ولم تكن المجامع اللغوية العربية أُسِست بعد (تأسيس المجمع العلمي الأول في دمشق عام 1919) اضطر الناس لاستخدام اللفظ الأجنبي "أتوموبيل" كاسم هذا الاختراع أخذاً من الكلمة الإنجليزية Automobile وانتشر هذا اللفظ وشاع، حتّى قيَّظ الله له أحدَ الغيورين على لغة الضاد هو الدكتور أحمد

زكي عميد كلية اللغة العربية في جامعة القاهرة أنذاك، فوضع كلمة "السيّارة" كبديل عن كلمة "أتوموبيل" وراحت الكلمتان تصطرعان على ألسنة الناس، حتى اندثرت الكلمة الدخيلة وبادت، وانتشرت الكلمة العربية وسادت»[4].

وتأسيًا بهذه الوقيعة التاريخية فقد آن الأوان أن يشمر حماة العربية على سواعدهم ويدخلوا معترك هذا الصراع بين ما هو أصيل يطابق لغتنا نطقا وتركيبا وما هو أجنبي تنفر منه الآذان والطباع.

ومثال هذه الوقيعة اليوم نجد مصطلح Ordinateur ومصطلح Internet تتداولهما الألسنة كثيرا في حين أوجد اللغويون مصطلح حاسوب وهو مصطلح عربي على وزن فاعول للدلالة على المبالغة وهو من أوزان اسم الآلة المطابق لطبيعة اللغة العربية الصرفية. ويبدو أن مصطلح حاسوب بدأ يسود ويشيع في مدارسنا وجامعاتنا وأسواقنا، وليس هناك أدنى شكّ في أن الغلبة في هذا الصراع ستكون للمصطلح العربي والحال نفسه مع مصطلح أنترنيت الذي أوجد له العلماء بالعربية مصطلح الشابك على وزن فاعل لأنه يقوم بعملية تشبيك المعلومات وهي ترجمة صحيحة توافق كلمة Internet الأجنبية في الدلالة.

والواضح أن المصطلح العربي يطاوع اللّسان فتسهل نسبته واشتقاقه فنقول: الشابكية، التشابك، شابكه...، بينما يعسر قولنا أنترننة اللغة، والأنترناتية الخ... ونقول حوسبة اللغة، واللسانيات الحاسوبية، وبذلك نجد المصطلح العربي أدق وأليق.

4- الغيرة على العربية عامل آخر يحافظ عليها: إن العديد من شعوب العالم الحية تتمتع بالغيرة على لغاتها فالقانون الفرنسي صارم جدّاً ويعاقب كل من يستخدم كلمة غير فرنسية، وأسس الألمان نادي الحفاظ على اللغة الألمانية برئاسة الأستاذ دولتر كرايمر الذي قال: «إن ظاهرة تطعيم الكلام بعبارات أو كلمات إنجليزية هي ظاهرة استعمارية تمس كرامة اللغة الألمانية»[5]. فماذا نقول نحن أبناء العربية المجيدة، وهل لنا عذر، وقد أصبحنا ندعي أنّ من يريد ولوج البحث العلمي عليه أن يدخله معتمداً على الإنجليزية لأنها لغة العلم، وكأن العربية ليست لغة علم «إن الأمة التي تهمل لغتها أمة تحتقر نفسها وتفرض التبعية الثقافية على نفسها»[6].

5- لا تقطعوا رأس العربية في التعليم العالي: إن الطريقة التي يتعامل بها القائمون على التعليم العالي وصناع السّياسات التّعليمية في بلدنا فيها من العجب ما يجعل المرء يحتار في طريقة تسيير المسار العلمي للطالب الجزائري، فطلابنا الناجحون في البكالوريا يجبرون على تعلم المواد العلمية والتقنية باللغة الفرنسية علمًا أن تكوينهم تم بالعربية، وبذلك تحدث لهم القطيعة بلغة آبائهم ودينهم، وقطعوا صلة العلم باللغة العربية، كان عليهم أن يعربوا العلوم الحديثة وهو أمر ليس بالعسير فالعديد من الدول العربية قامت بذلك وهي تدرس الطب بالعربية والعلوم التقنية بالعربية وما قدمته المجامع اللغوية العربية في مجال ترجمة المصطلح العلمي وتعريبه كفيل بغلق هذا الادعاء الذي يتستر وراءه البعض، وإن الشيء الذي ينقص في هذه العملية هو الإرادة الصادقة وصدق العزيمة.

إن شعوب العالم لا تسلك هذا المسلك القائم في بلدنا فأمم الأرض أدركت هذه الوضعية وراحت تنقل العلوم إلى لغاتها القومية فدولة السويد على قلة عدد سكانها فرضت تعليم جميع العلوم بلغتها وما سمعنا أن الصين أو الهند أو إيران أو كوريا أو إسبانيا أو اليابان أو غيرها من جامعات العالم تعلم طلابها بغير لغاتها ولم نجد هذا السلوك الغريب والبدعة العجيبة إلا في العالم العربي وقد أكدت الأبحاث الاجتماعية والنفسية أن المعرفة لا يتم استيعابها جيداً إلا إن قدمت باللغة الأم، ولا يمكن إحداث بحث علمي ناجح إلا إذا تم باللغة الأصلية، ذلك أن الصلة وثيقة بين الثقافة الأصلية وتحقيق أي نمو اقتصادي أو اجتماعي أو علمي.

6- تطوير مناهج وطرائق تعليمية العربية: إن الطريق الطبيعي في تعليم اللغة العربية تتقاسمه العديد من الجهات تتقدمها المدرسة بجميع أطوارها بالإضافة إلى الأسرة والمحيط الإعلامي بجميع أنواعه، وتبذل الأمم الحية جهودا كبيرة في تعليم لغاتها لأبنائها ولغير أبنائها فتلجأ إلى استخدام شتّى الأساليب والطرائق الحديثة أفلاما وجرائد وإذاعات ومخابر لغوية وسلاسل كتب ميَّسرة للطالب وإرشادات وتوجيهات للمعلمين وتنفق أموالا في ذلك، كل ذلك حتى تمدَّ من الرقعة الجغرافية

للغاتها ومن جهة أخرى يدل هذا الاهتمام باللغة على حرص هذه الأمم لنشر ثقافاتها وتعريف العالم بحضاراتها لأن في ذلك تحقيق لمكاسب معنوية ومادية.

ويمثل التعليم بجميع أطواره ركيزة تعليم العربية لذلك غدا من المؤكد الاهتمام أكثر بتطوير مناهج تعليمها وطرائق تلقينها للناشئة، فلا بد من تنظيم حال المدرسة معلمين، وكتبا وطرائق وتقييمًا وتسييرًا «فعندما يعمد مدرسو جميع المواد إلى التحدث باللغة الفصحى والشرح بها، وعندما ينشرون في أجواء المدرسة المناشط اللغوية من جرائد ومجلات ومسرح وقصص باللغة الفصحى، وعندما يتم إقامة اللقاءات والمنافسات الأدبية بالفصحى فإن ذلك يشكل عاملا مساهماً في النهوض باللغة»[7]. ولكي يقوم معلمو العربية بهذه المهمة على أكمل وجه عليهم أن يتقنوا العربية ومن هنا وجب إجراء تكوين لهم حتى تتحقق لديهم ملكة اللغة، وملكة تعليم اللغة واكتساب القدر الكافي من المعارف الخاصة بمضمون المناهج التربوية.

إن تبنّي المناهج الغيرية كلية دون مراعاة لقيم المجتمع الجزائري وعادته وتقاليده وأعرافه وقناعات شعبه الثقافية من شأنه أن ينفر أبناءنا من طرائق التعليم ومن المعارف التي يراد تقديمها لهم، ولنا في تصرفات أبنائنا ما يؤكد ذلك ولننظر إلى دفاتر الطلبة الممزقة في الشوارع بعد انتهاء الامتحان آخر السنة، لقد أنشأت المنظومة التعليمية جيلا يتوخّى السّهولة ويهرب إلى الأبسط وينفر من كل ما فيه جهد ويتفرغ لتضييع وقته في التفاهات.

7- أخطار التراكم الثقافي: لقد غدا التراكم الثقافي وكثافة المعارف من ميزة منظوماتنا التربوية وأصبح حشو أذهان أبنائنا بالمعلومات القديمة والحديثة والمحلية والأجنبية صفتنا المميزة نقول لأبنائنا أشياء كثيرة ولا نضيف شيئا جديدا إليهم وجعلناهم يجترون ويمضغون ويلوكون وفي النهاية لم نحصل على المواطن الجزائري المثقف السّوي الذي ينشد القيم الخلقية ويقدس العمل ويعرف حدوده ويقدر حريات الغير.

إن منظومتنا أنتجت جيلا يتباهى بالألقاب ويحمل شهادات تلمع عليها الأسماء ويكدس الكتب المجلدة في الخزائن تتزين بها الدُّور والجدران.

وعليه فإذا أردنا ولوج عالم التقدم والتحضر وفهم الحياة علينا أن ننتقل إلى دائرة الوعي بما يجري في الحياة من حولنا وما يحدث في بيئتنا البشرية وحياتنا الإنسانية.

8- الخلاصة: إن ثمة جهودا ينبغي أن تبذل في مختلف جوانب الحياة اليومية للغة العربية حتى نتمكن من ترقية استعمالها وحتى تكون قادرة على أداء وظيفتها؛ فهي وسيلة الفرد لقضاء حاجاته وللتفاهم مع بني جنسه وللتعبير عن عواطفه ومشاعره وأفكاره، ونقل تجربته إلى الآخرين والاستفادة من تجارب الآخرين وهي الوسيلة التي تنقل التراث من الماضي إلى الحاضر ومن الحاضر إلى المستقبل وإن النهوض بها هي مسؤولية جماعية تتولاها الأمة بجميع مكوناتها وعلى الجميع أن يسلك السبل الناجعة في معالجة جوانب الضعف الذي تعاني منه اللغة العربية. ونأمل أن يكون غدنا أفضل من يومنا والله من وراء القصد.

الهوامش:

1- علال الفاسي، الديوان، ص48.
2- فداء ياسر الجندي من مواليد دمشق 1959 له إجازة في الهندسة المدنية من جامعة دمشق 1982، وإجازة في اللغة العربية من جامعة بيروت العربية 1996، ودبلوم في الترجمة من الجامعة الأمريكية بالشارقة 1999، له اجتهادات مثمرة في حوسبة اللغة العربية. المرجع: كتابه العرب والعربية في عصر الثورة الحاسوبية، دار الفكر، دمشق، ص (الغلاف من الداخل).
3- فداء ياسر الجندي، العرب والعربية في عصر الثورة الحاسوبية، دار الفكر، دمشق، ط1 ص 114.
4- نفسه، ص 122.
5- مازن المبارك، اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي، ص 71.
6- صحيفة الأهرام القاهرية، 2012/06/28.
7- محمد السيد، في قضايا اللغة التربوية، وكالة المطبوعات الجامعية، الكويت ص 61.